الرموز الصوفية في شعر الشيخ البهائي

طالب الدكتوراه سيد أمير موسوي
قسم اللغة العربية و أدابها ،فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية، آبادان ــ ايران
moosavi224@gmail.com
الدكتور صادق ابراهيمي كاوري الاستاذ المشرف (الكاتب المسؤول)
قسم اللغة العربية و أدابها ،فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية، آبادان ــ ايران
الدكتورة سهاد جادري الأستاذة المساعدة
قسم اللغة العربية و أدابها ،فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية، آبادان ــ ايران
sohadjaderi@yahoo.com

Sufi symbols in Sheikh Bahia's poetry

Syed Amir Mousavi
PhD student Department of Arabic Language and Literature , Islamic Azad University, Branch Abadan – Iran
Dr. Sādeq Ibrahimi Kavri (Responsible Writer(
Supervisor Professor - Department of Arabic Language and Literature - Islamic Azad University, Branch Abadan – Iran
Dr. Sohad Jadri
Supervisor Professor - Department of Arabic Language and Literature - Islamic Azad University, Branch Abadan – Iran

الملخّص :

إن الشعر الصوفي هو الذروة في الشعر العربي، وهذا الشعر لا يعلم قيمته إلّا من له ذوق رائق؛ لأنه يلامس شغاف القلب و يمتع الروح و يرتقي بها الى أعلى المراقي. و يمثّل الادب الصوفي لوناً من الوان الادب الرفيع؛ يحمل في طياته أسمي معاني السمو الروحي وخصائصها. فالتراث الصوفي كأي مذهب فكري أو ديني له لغته و مصطلحاته التي يمتاز بها عن غيره و التي تحوي آراء المتصوفة و عقائدهم. و قد ألفينا الشيخ البهائي كغيره من الشعراء مال الي استخدام هذه اللغة في بعدها الرمزي الإشاري للإيحاء بافكاره و عواطفه، ليخرج من نطاق المألوف الى الإيحاء و الغموض ، و ذلك لدليلين، أحدهما: حرصاً على عدم التصريح بما يختلج بنفسه ، و ثانيا : حيث اعتبر الرمز أحد الأساليب الجمالية الخاصة التي عمد اليه الشعراء لتوسيع آفاق الصورة الشعرية.

فهذه الدراسة تحاول البحث في الرموز الصوفية التي تناولها الشيخ البهائي في ديوانه ، و الكشف عن مفهوم هذه الرموز و هي جهاد النفس في سبيل معرفة الله و العبادة الخاصة له و الحضور الدائم الله و دلالاتها في شعره.

الكلمات المفتاحية: الرمز، الصوفية، البهائي، التصوف، الرموز.

Abstract:

Sufi poetry is the pinnacle of Arabic poetry, and no one appreciates this poem except those who know its value. Because it touches the endocardium, the pleasure of the soul, and elevates it to the highest level. Sufi literature represents a color of fine literature. It carries with it the names and characteristics of spiritual supremacy. Sufi heritage, like any intellectual or religious school of thought, has its own language and terminology that is distinguished from others and which contain the views of the Sufis and their beliefs. We found in Sheikh Al-Baha'i, like other poets, a tendency to use this language in its symbolic, indicative dimension to suggest its ideas and emotions, to get out of the scope of the familiar to suggest and ambiguity, and that for two guides, one of them: In the interest of not declaring what is being cured by himself, and secondly: the symbol was considered one of the special aesthetic methods that poets intended to broaden the horizons of the poetic image.

This study tries to research the mystical symbols that Sheikh Al-Baha'i dealt with in his collection, and to reveal the concept of these symbols, which is the struggle of the soul in the way of knowing God, his special worship, and the constant presence of God and its implications in his poetry.

Key words : symbol , Sufi , Baha'i , Sufism .

المقدمة

إن الرمز نص غائب داخل نص حاضر، بل و إنه ذو طبيعة مزدوجة يحمل الحاضر و الغائب ، إنه السيل الذي يجعل القصيدة حبلي تنفتح على امكانيات الفهم، أو كما قال أدونيس بأنه:« اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة » (أدونيس ،١٩٧٢ م : ١٦٠)

و إن الحديث عن الرمز في الشعر قديم قدم الآداب سواء العربية أم غيرها . إتخذه الناس قديماً ليبرزوا قيمة الفكرة بواسطة الاستعارة الحسية ، أو ليخطفوها كما هو الشان عند الصوفية.

فمن هذا المنطلق قد اصبحت للصوفية لغة اصطلاحية خاصة اتفقوا عليها فيما بينهم بحيث يفهمونها لوحدهم، و لا يفهمها غيرهم . بل إنها مبهمة على من ليس بصوفي ، لأن هذه اللغة تعبر عن أسرار و حقائق ذوقية ، وهبها الله للصوفية، و هم يخشون أن تشيع هذه الحقائق و تلك الأسرار بين من ليسوا أهلاً لها.

لذا تعمّد المتصوفة إبتكار معجم خاص يقوم على الرمز الصوفي ، و يحمل خبايا اللغة الصوفية، باعتبارها لغة تخضع لقوانينها الذاتية و لا تتمثل فيها اللفظة لحدود المعنى الظاهر . باعتبار التصوف خبرة ذاتية ، مما جعل منه شيئاً قريباً من الفن. و البحث عن اللذة الروحية التي لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ في معانيها العادية.

الدراسات السابقة:

و أمّا بالنسبة للدراسات السابقة لم نعتمدها ؛ لأنها لم تكن هناك دراسات باللغة العربية لهذا الموضوع بالتحديد، و لا حتى باللغة الفارسية لأشعاره الفارسية .

إنّما قامت دراسات حول شخصية الشيخ البهابي و شرح أشعاره الفارسية و خصائصها ، و شرح قصيدة واحدة بالعربية التي سمّاها الشيخ بقصيدة «وسيله الفوز والأمان».

و لكن لم نعثر على دراسة خصصت الرموز الصوفية في شعره.

أسباب إختيار الموضوع:

و أمّا من دواعي إختياري لدراسة الرموز الصوفية في شعر الشيخ البهائي تكمن فيما يلي:

- قلّة الدراسات التي تناولت شعر الشيخ البهائي.

- قابلية شعر الشيخ البهائي للقراءة و تأويل الدلالات.
- إبراز بعض الرموز الشعرية التي يتضمّنها ديوان الشيخ البهائي.
- الإعجاب الذاتي بالإسلوب و الخطاب الراقي لشعر الشيخ البهائي.

أسئلة البحث:

إنطلاقاً من الإشكاليات التالية:

- ماذا نقصد بالرمز و التصوف ؟
- كيف كانت دلالات الرموز الصوفية في شعره.

فرضيات البحث:

« الرمز معناه الايحاء ، أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المنتشرة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية.» (غنيمي هلال، ٢٠٠٣ م : ٣١٥)

فالرمز ليس أداة تقرير و مقابلة و إنتخاب ، بل إنه ينفذ في ضميره و في نواياه و يطلع من قلب المادة الصمّاء أرواح الحقائق الكامنة فيها.

كما أنه تعددت مفاهيم التصوف و تباينت حسب المواقف و الأزمنة و الظروف؛ فمنها: ضبط الحواس ، و مراعاة النفس و التآلف و التعاطف . أو ترك الفضول ، و قيل : هو العلوّ الى كل خلق شريف و العدول عن كل خلق دنيء. و هلم جري.

لقد وظف الشيخ البهائي الرمز بشكل المكثف في شعره ، و لعلّ ذلك راجع الى تجربته الشعرية و ما ينصهر بداخله من صراعات و شحنات عاطفية، فهو يستخدم الرمز بانفعال عميق الجذور منطلقاً من واقعه الانساني و الاجتماعي و السياسي، فجاءت هذه الرموز مرآة عاكسة لاهتمامه و رسالته الدينية إتجاه المجتمع لأنه رجل دين و فقاهة.

أهمية دراسة الرموز الصوفية:

لأن كانت اللغة عند ابن جنّي « أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم » فإن للصفوفية لغتهم الخاصة التي حاولوا بها التعبير عن الاغراض و المرامي الذوقية التي اختصوا بها. من أبرز ما يميز الشعر الصوفي اصطناع اصحابه لأسلوب الرمز في التعبير عن حقائقهم. و لهذا لابد من الاهتمام بهذه اللغة و الرموز؛ و لا ينبغي النظر الى اصطلاحات الصوفية أو رموزهم على انها مجرد ألفاظ ، فهي تدل على المعاني التي وضعت لها في حالة حركية ، فهي بمثابه أدوات توقظ مشاعر مسامعيها بمعنى الكلمة.

لأن الرموز و دلالاتها تفتح لنا كوّة في حائط المعرفة ، لفهم عالم جديد من الرؤي و الأخيلة و جمال التعبير بألحان الحياة الروحية . فالرموز الصوفية تحفّز الفكر الانساني على درك معالم الوجود المعنوي، و تجعل من الكلمة مفتاحاً لكشف ما يختبئ خلفها من أسرار.

و تكمن أهمية الموضوع أيضاً فإننا نقرأ لغة جديدة تغرف من بحر المعارف اللدنيه والإلهام. فنشقّ طريقاً جديداً لبحث جديد، فالدلالات جديدة و الرموز مفعمة بالغموض الواضح و الوضوح الغامض ، و ما بين الغموض و الوضوح تتشكل لغة طريفة تليدة، طريفة في عالم الكتابة ، لكنها تليدة في عالم الروح و دلالة الرموز.

و كما عمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي و ارتكزنا على التحليل و التفسير و التدقيق في الجوانب الرمزية . و قد استمدنا بالعديد من المصادر و المراجع منها: كتاب «بهاء الدين العاملي أديباً و فقيهاً و عالماً» للدكتورة دلال عباس ، و كتاب «الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة و الإغراب قصدا» لأسماء خوالدية ، و كتاب «الرمز الشعري عند الصوفية» للدكتور عاطف جودة نصر.

المدخل:

إن التجربة الشعرية الصوفية في عرف التراث العربي الاسلامي تتمثل في مجموعة من التجليات الوجدانية ، المؤيدة بأطوار روحانية يسلكها جملة من الشعراء الذين يجتازون مرحلة الزهد الى مراحل تتدرج حتى تبلغ بهم مدارج السالكين و الواصلين . فتتداخل فيها عناصر منها: الحب الالهي ، رؤية الجمال المطلق و تجلّيه بمظاهر الكون و الطبيعة، التفاني و التغني بالذات الالهية و غيرها.

فلذا جاءت قرائح الشعر الصوفية بشعر عذب سلس ، يحمل خالص تجاربهم ، و يعبّر عن صافي مشاعرهم و أصدق عواطفهم تجاه الذات الالهية . و لعلّ أبرز ما يميز هذا الشعر، توظيف الرمز بكل اشكاله.

فكان الشيخ البهائي من الشعراء الذين نالوا شهرة بعيدة في العالم العربي و الاسلامي؛ فقد تكاملت في شعره كل الطبائع الفنية التي تميز بها الشعر الصوفي الإسلامي ، فإنه يحمل نفحات قرآنية و نظريات فلسفية . كما أن الشيخ البهائي لازم في شعره أسلوباً رمزياً بدلالات صوفية عميقة تقاسمتها حالتا البُعد و اللقاء ، ثمّ جمع في

معجم شعره الصوفي بين الرقة و العذوبة و الإنسجام ، و بين الغرابة و التعقيد و الغموض ، و الوصول الى تخوم الروح العميقة و البعيدة عن المادة و الحسّ ؛ مستخدماً عبارات و رموز نقلت النصوص من حضيض الفهم الظاهر الى رحاب الوجد الصوفي.

مفهوم الرمز

«يعرف مصطلح الرمز بأنه طريقة للافضاء بما لا يمكن التعبير عنه، و هو معين لا ينضب للغموض و الإيحاء و مصدر خصب من مصادر التأويل.» (خوالدية،٢٠١٤م:٢١) فالرمز قابل للتفجير و التفسير المتجدد، و له القدرة على البث المتواصل للمعاني و المشاعر بظلالها و إيحاءاتها ، و إنه عنصر الإنفعال و الإحتمال. و «الرمز عام الانطباق أي يوحي بأكثر من شيء واحد، و هو متحرك و متنقل و متنوع.» (حمدان،١٩٨١م: ٢٥و٢٦)

«كما أن الرمز يشمل كل انواع المجاز المرسل و التشبيه و الاستعارة بما فيه من علاقات دلالية مُعقّدة بين الاشياء بعضها و بعض.» (وهبة و المهندس ، ١٩٨٤ م: ١٨١)

إذن فإن «الرمز هو معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر ، لا يظفر به إلّا أهله.» (الحفني، ١٩٨٧م: ١١٤)

و هناك فرق بين الرمز و الإشاره «فالاشاره جزءاً من عالم الوجود المادي في حين أن الرمز جزء من عالم المعنى الانساني. و الاشارة مرتبطة بالشيء الذي تشير اليه على نحو ثابت و كل إشارة واحدة ملموسة تشير الى شيء واحد معين.» أمّا الرمز ـــ كما مر ـــ فعام الإنطباق. (حمدان، ١٩٨١م : ٢٥و٢٦)

مفهوم التصوف

هو ظاهرة سلوكية و تعبدية و تطهير للنفس الانسانية ، و تأمل و فكر في الوجود الأصيل في الإسلام.

«و التصوف هو التجرّد تماماً من مباهج الدنيا و مفاتنها، و محاولة التخلّص من الجسد ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول دون التمتّع بالنّور الإلهي الفياض على الكون ، و الفناء المطلق في الذات العلية فناءً يقترن بالعشق الإلهي.» (وهبة و المهندس، ١٩٨٤م: ٢٢٨)

فلقد كان التصوف رمزاً لحياة الزهد و مظهراً للتقشف . و هو تلك العلاقة الروحية بين الإنسان و خالقه و مظهر من مظاهر التقوى و التقرب إلى الله سبحانه و تعالى.

فالتصوّف ظاهرة روحية وجدانية من ناحية و تجربة إنسانية من ناحية أخرى، قد تباينت آراء الصوفية في بيان مفهومه؛ لأنّ كل انسان يفكر في تجربته حسب ميوله و افكاره و رؤيته لمعالجة هذه القضية ، و لذا اختلفت الآراء حول تعريف التصوّف ، و ماهيته ، فعبّر كل صوفي عنه بطريقته الخاصة، بيد أن الكل متفقون على أنها طريقة للتقرب الى الله سبحانه و تعالى.

كما أن فيه الكثير من الرموز و الإيماءات و الاشارات التي لا يفهمها إلّا اصحاب التجربة نفسها ، أو الدارس الجيد لفلسفة التصوّف ، كالشيخ البهائي.

الرموز الصوفية

الرمز كما قلنا هو اسلوب من أساليب التعبير شاع في الكتابات الصوفية ، نثرها و شعرها ، اسلوب ألجأتهم اليه الحاجة. و يتّجه الادب الصوفي اتجاهاً رمزياً في معالجة الظواهر الكونية و في التعبير عن التجربة الروحية التي يمارسها العارفون من الصوفية.

و قد مثل نزوع الصوفية الى الرمز علامة فارقة في شعرهم ، إذ غلب على منظومهم ، فانزاح خطابهم عن المالوف الى اللغة عن واقع تعبيرهم، موجداً لغة جديدة الرمز أحد مقوماتها. و غداة صار الرمز في منظور المتصوفة بُعداً جديداً أفضى الى خلق متعة جمالية في النص الصوفي خاصة لدى امتزاجه بالغزل.

الرموز إذن صرف من المعاني الظاهرة طلباً للمعاني الباطنة. و هي توجيه قصدي للفهم لكي يترك الباب مفتوحاً على أي معنى يطرأ على ذهن القارئ عند التأويل و التدبّر.

فالرمز لا يستخدم عند الصوفية لذاته و إنما هو مطية الى معان أخرى مقصودة بذاتها ، و هو ينتمي الى حقول بحث متعددة و متنوعة جداً ، ناهيك عن كونه نتاج حالة انسانية فريدة خارج الإدراك المباشر للقارئ .

و على هذا الاساس فإن للرمز معنى ظاهرياً و مباشراً و آخر باطنياً و غير مباشر. فهو ليس حقيقة ظاهرة، بل هو حجّة و برهان قائم بذاته على المعاني الخفيه.

فيقول ابن عربي في ثنايا إحدى قصائده موضحاً دلالة الرمز:

ألا إنّ الرمـــوز دليـــل صـــدق علـــي المعـــني المغيـــب في الفـــؤاد
و إنّ العـــــالمين لـــــهم رمـــوز و ألـــغـــاز ليـــدعي بـالـعبـــاد

(ابن عربي، ١٩٩٩م: ٢٨٦)

و يبدو الرمز الصوفي أشمل من الرمز الادبي ، فهو متغير من صوفي الى آخر ، و من مرحلة الى أخرى ، و من سياق الى آخر ؛ ناهيك على أن درجة الألغاز فيه أعمق و أغور:

و لـو لا اللغـز كـان القـول كفـرا و أدّي العـــالمين الـــي العنـــادِ
فهـم بـالرمز قـد حسـبوا فقـالوا بـــإهراق الـــدماء و بـــالفسادِ

(المصدر نفسه:٢٨٧)

هكذا نرى قد مال الشيخ البهائي في شعر الحبّ الإلهي وقد عمد الى الرموز الصوفية في هذا اللون من الشعر. و قد عبّر الشيخ البهائي عن الحبّ و الوجد الإلهي بصوَر شتّي من التعبيرات التي استعار بعضها من الشعر العذري.

الحبّ و الهوى، وما يتعلق من كتمان، و ألم و تحول، و شوق وهجر، و وصل ، و العذل والفناء و... من الوجهة الصوفية هو الموضوع العام في شعر الشيخ البهائي ، كقوله:

يـــا عـــاذلُ كـم تُطيلُ في إتعابي دَع لومَـك و انصـرف كفـاني مـا بـي
لا لـومَ إذا همـتُ مـن الشـوق فمـا ذاق قـــلـــبـي فُـــرقـــة الأحبابِ

(البهائي،٢٠٠٩م :١١٦)

أو عندما يصفُ أيام الوصل ويتمنّى لو يقتل بدل الهجر من المحبوب:

يـــا بـدر دُجـي بوَصـلهِ أحيـاني إذ زارَ و كـــم بِحِجـــرِهِ أفنـــاني
بـالله عليـك عجّلَـن سـفكَ دمـي لا طـــاقة لـــي بليلـــة الهجـــرانِ

(المصدر نفسه : ١٣٧)

فالـ «دُجي» في البيت الاول هو كنايه عن المظاهر الكونية ، باعتبار نظر اهل الغفلة . و«أفناني» من الفناء، و الفناء بمعنى السير الى الله و الذوب في حبّه.

فلذا يتمنّى الشيخ البهائي القتل وسفك الدم بدل أن يفارق هذه المظاهر الكونية الجميلة ، التي تؤدي الى السير الى الله عزّوجل و الذَوَبان في حبّه جلّ وعلا.

و من اللمسات التصويرية التي ظهرت في ثنايا شعره، هي القصيدة التي من سوانح سفر حجاز، فقال في مطلعها مُستمداً باسلوب النداء:

يـا نـديمي ضـاع عمـري و انقضـي ... قـم لإسـتدراك وقـت قـد مضـي
و اغسـل الأونـاس عنّـي بالمُـدام ... و امـلأ الأقـداح منهـا يـا غـلام
و اسـقني كأسـاً فقـد لاح الصـباح ... و الثريـا غَرَبـت و الـديك صـاح

الى أن قال في قمّة الروعة:

هـاتـها مـن غـير مَهـلٍ يـا نـديم ... خمـرةً تُـحيي بـها العظـم الـرميم
بنـتُ كـرمٍ تجعلَـنَّ الشـيخ شـاب ... مـن يـذُق منهـا عـن الكـونين غـاب
خمـرةٌ مـن نـار موسـي نـورُها ... دنُّـها قـلبي ، و صـدري طورُهـا

(المصدرنفسه:١٤٢) (الدّن : وعاء ضخم للخمر و نحوها)

في هذه الابيات يستوحي الشيخ البهائي التجربة الصوفية بأبعادها الدلالية والرمزية، فاللغة الصوفية لغة مرموزة، من شأنها أن تؤلب ، وأن تحمل دلالات مكثفة، فألفاظ الحب والغناء و الخمرة و الكأس والشراب والسُكر، تحمل عند المتصوفة أخيلة و أبعاد دلالية و رمزية متعددة، و هذا ما يبدو واضحاً في هذه الابيات والقصيدة ، التي غلب عليها الجانب الرمزي و التصويري.

فالشيخ البهائي ينادي رجال الحب، و حبّه ليس الحب البشري العذري أو غير العذري، انّما هو ذلك الحب الذي نجده في اشعار كبار المتصوفة من امثال ابن الفارض و الرابعة العدوية وغيرهما، والكاس مملوء لكنّه مملوء بنوع خاص من الخمرة هي خمرة الله، وقد هام بهذه الخمرة أُناس مخصوصون هم رجال الإستقامة ، فالشيخ البهائي يدعو هولاء الرجال ليشربوا من دنّه.

فيدعو ندمائه وهم أهل الاستقامة – في حب الله و طريق سلوكه – لشرب هذه الخمرة لانّها تحيي العظام وهي رميم. (يس: ٧٨) و يقصد بأن التفاني في حب الله هو الحياة بعينها، فلا معنى للشيخوخة بممارستها، بل دوام الشباب فيها. و إنّها تؤدي الى قرب الله كقرب الكليم عندما خاطبه الله من وراء الحجاب؛ فأردف قائلا:

قـم فـلا تهمـل فمـا في العُمـر مَهـلُ ... لا تُصـعّب شـربها و الأمـرُ سـهلُ
قـــل لـشيخٍ قـلبه مـنها نـفور ... لاتـــخف فـــالله تـــوابٌ غفـور

(البهائي،٢٠٠٩م:١٤٢)

فالبيت الاول يوحي إلينا بهذه الآية ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥)

فالشيخ يدعو اليها و يقول بأن الطريق الى حبّ الله ليس صعباً بل هو سهلٌ ، فلا تهمل العُمر بالتسويف أو البطالة.

وفي البيت الثاني ايضاً يوحي الى آيات التوبة ويقول بأن الانسان وإن مضى من عمره فصار شيخاً ، لابد له بأن يتوب ويرجع الى الله فلا يخاف عدم قبولها بل الله تواب غفور.

وقد استطرد قائلا:

يـــا مغنّـــي إنّ عنـــدي كـــلّ غـــم قُـــــم و ألـــقِ النـــاي فيها بـالنَّغم
غـــنِّ لـــي دوراً فقـــد دار القـــدح و الصبا قـد فـاح و القُمري صـدح

(البهائي، ٢٠٠٩م: ١٤٣)

و قد واصل الشيخ وخاطب المغني بأن يعزف معزوفته ولكي يطرب بها حين حالة السُكر، وهذا ما أشرنا اليه مسبقاً بأن الشراب الصوفي ليس خمراً تدير له الراس وتثقل النفس، بل تنعش الوجدان وتجلو عين البصيرة وتفتح أمام القلب أرحب الآفاق.(العوادي، ١٩٧٩م : ٢٠٠)

و لعلّ القصد من المغنّي هو الكلام الطيب والحديث الذي يتناوله الصوفي ويخاطب به الله سبحانه . و يتصورها أو يعبّر عنها الصوفيون على شكل أنغام و الحان تُعزف ، و كأنها القرآن حين يقرأ بالترتيل أو باللحن؛ فيكون له أثراً منعشاً في النفوس.

فيكمل الشيخ البهائي القصيدة و يقول:

روِّحـــن روحـــي بأشـــعار العـــرب كـــي يـــتِمَّ الحـــظُ فينـــا و الطـــرب

(البهائي، ٢٠٠٩م : ١٤٣)

فيتابع و بعد بيتين:

ثُـــــم أطـــــربني بـــــأشعار و اطـردن همّـاً علـي قلـبي هجـم
و ابـتـــدئ مـــنها بـبيت المثنـوي لـــلحكيم المولـــوي المعنـــوي ١
«بشـنو از نـي چون حكايـت ميكنـد از جـدائيها شـكايت ميكنـد» ٢

قُــم و خــاطبني بكــلّ الألســنه عَــلَّ قلــبي ينتبــه مــن ذي السِّــنه

ففي هذه الابيات يريد الشيخ أن يذكّر نفسه و الانسان بأن الله وحب الله عزوجل ليس منحصراً لقومٍ خاص ، أو لسان خاص، بل الله سبحانه خالق الشعوب، و حبّه مكنون في قلوب الناس جميعا في شتى نوعيتها . ذكر في مابين قصيدته بيتاً باللغة الفارسية للشاعر المولوي، و قصد بذلك نموذجاً من المُتفانين بحب الله . و كل هذا هو مصداق و إشارة للآيتين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣) و﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾(الروم: ٢٢)

وهذا ما ذكره و قَصَده في البيت « قُم و خاطبني بكل الألسنه » و على هذا فإنّ الآيتان الشريفتان تجمع هذا المعنى، و تخرج و بالنتيجة و هي : ﴿ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ ﴾(النور: ٤١)

وقد جارىٰ قصيدة لوالده التي تتضمن في مطلعها شطراً مما أنشاه الجامي٣ « فاح ريح الصبا وصاح الديك »، فجاء مطلع قصيدة والد البهائي:

فـاح ريـحُ الصـبا و صـاح الـديك فانتبــه و انــفِ عنــك مــا ينفيــك

و اخـــلع النعـــل في الهـــوي ولِهـــا و ادنُ مـــنّـــا فـــإننـــا نُـــدنيك

وقد قال الشيخ البهائي في مطلع قصيدته مجاراةً لقصيدة والده:

يـــا نـــديمي بمهجـــتي أفـــديك قُـــم و هات الكوؤس مِن هاتيك

هـــاتـــها هـــاتـــها مشعشـــعة أفسـدت نُسـك ذي التُقـي النّسّـيك

الى أن ينهيها بقوله:

ثُـــمّ وسّـدتـــه اليمـــين إلـــي أن دنـا الصـبحُ قـال لـي: يكفيـك

قلـتُ مهـلاً ، فقـال قُـم فلقـد فـاح ريـح الصّبا و صـاح الـديك

(الكرباسي، ٢٠٠٩م: ٣٥٦)

فهذه القصيدة التي سارت مسير المثل ، هي من إبداعات الشيخ البهائي ، لأنه اوّل من نظم على هذا الوزن، الذي لم يكن يعهد من ذي قبل . والذي تفعيلاته : فاعلاتن متفعلن فعلان(فاعلاتن مفاعلن فعلان) أو فعلن .

وهي مملوءة بالرموز الصوفية التي مرّ ذكرها ومعانيها : من السُكر و الصحو والحب والمحبوب و غيرها و هي من أروع القصائد و من أنيق نظمه شكلاً ومضموناً .

و مما لا شك فيه بـ «أن اهل البيت عليهم السلام بالنسبة الي الشيخ البهائي هم القدوة في طريق الحق جلّ وعلا ، و حبهم يعني السير في هذا الطريق للوصول الي المعرفة الحقّة : الوصال ، الشوق ، الهجر، الحشا المشتعل، الهوي المؤدي الي الجنون، و الحب الباقي رغم الهجر و الدلال ، كلها رموز توصل الي العشق الإلهي ، و كذلك ما ترمز اليه فكرة الإمام المهدي(عج) كطريق الي الحق جلّ و علا.» (عباس،١٩٧٥م: ٣٨٣)

شمس اوج المجد مصباحُ الظلام ... صفوةُ الرحمن من بين الأنام
الإمامُ ابن الإمامِ ابنُ الإمام ... قطبُ افلاك المعالي و الكمال

(البهائي،٢٠٠٩م: ٧١)

فمن المصطلحات الرئيسية في الصوفية هو مصطلح «القطب» و هو «عبارة عن رجل هو موضع نظر الله تعالي من العالم في كل زمان، و يسمي بالغوث ايضاً باعتبار التجأ الملهوف اليه.» (الحفني،١٩٨٧م: ٢١٧)

فنري أن البهائي قدر ركز الرمز الأساسي و مزجه مع معتقده امتزاجاً جميلاً و قد خصّ الأمام المهدي(عج) بالقطب ، و هو معتقد مشترك بين الشيعة و التصوف.

كما أنه يحاول الشيخ أن يثني عن وفائه للمحبوب في حبه كقوله: اللوعة، يا عاذلي ، يا نديمي ، يا خليلي ، اللوم ، إنصرف وغيرها.

خلّياني بلوعتي و غرامي ... يا خليلي و اذهبا بسلام
قد دعاني الهوي و لبّاهُ لُبّي ... فدعاني و لا تُطيلا ملامي
إنّ من ذاق نشوةَ الحب يوماً ... لا يبالي بكثرة اللُّوام

(البهائي،٢٠٠٩م: ١٧٣)

كما يقدّم البرهان على هذا الحبّ و على صدق المحبة وهو غالباً ما يتمثل في صور عاطفية متأججة كالسهر، السهاد، الوجد، الشوق، اللّوعة :

كم بتُّ من المَسا الي الإشراقِ ... في فرقتكم و مُطربي أشواقي
و الهَمُّ مُنادمي و نَقلي سَهَري ... و الدمعُ مُدامتي و جَفني السّاقي

(المصدر نفسه: ١٢١)

وصور أخرى جسمية كالنحول والضمور والسقم و ما شابه ذلك :

لّما نظرَ الجفنُ ضعيفاً نُهكا ... من فرقته رَقَّ لضعفي و بكي
و ارتاح و قال لي أما قُلتُ لكا ... ما يمكنك الفراقُ ما يمكنكا

(المصدر نفسه: ١٢٦)

يا غائبُ عن عيني لا عن بالي ... القُربُ اليك مُنتهي آمالي
أيامُ نواك لا تسل كيف مَضَت ... والله مَضَت بأسوء الأحوالِ

(المصدرنفسه: ١٢٩)

أو كحالات إجتماعية مثل الفقر وغيره، كقوله:

أنا الفقيرِ المُعَنّي ... ذو رقّةٍ و حنينِ
للناسِ طُرّاً خدومٌ ... إذا هُمُ استخدموني

(المصدر نفسه: ١٧٨)

و من الدلائل اللغوية في شعر الشيخ البهائي بناء أفعال الحضور الى الزمن الماضي، كقصيدته المُسماة بـ «غديرية الشيخ البهائي» مثل قوله «جلسنا» «قمنا» «ثقتنا» و منها ايضاً سرد التجليات الذات الالهية المرتبط بالزمن الماضي . مثل قوله «أماطت» «صَيرَت» «جاءت» «فقامت» ، بحيث أنّ معرفه الشيء لا تتم إلّا بمعاينته. و من التعبيرات الصوفية قولهم: «ذق تعرف»:

أماطت ذاتُ الخمارِ الخمارا ... و صيرت الليل منها النّهارا
و جاءت تُشمّرُ من أبلجِ ... كما طلع البدرُ حين استنارا

الي أن قال:

و لم أنسَ مجلسنا عندها ... جَلَسنا صحاوي و قُمنا سَكاري
تَميلُ بنا عَذَباتُ المُدامِ ... و نحنُ نَميسُ كلانا حياري

حتّي و كأنّ الشيخ يري و يذوق ما عرفه :

إذا البدرُ أبصرها و القضيبُ ... تَلَبَّسَ هذا و هذا تَواري

(المصدرنفسه: ٣٥ و ٣٧)

ففي هذه الأبيات تحول الخمر رمزاً علي المحبّة الإلهية و لذلك نجد الشاعر ينحل المفردات المرتبطة بالخمر ليجعلها توافق عقيدته ، ومن بين هذه الألفاظ : «ذات الخمار» ، «البدر» ، «النديم» ، «الليل» ، «الأبلج» ، «المُدام» ، «الصهباء» ، «الإفتقار» ، فالمشعشعة من حيث أنها المدامة ، إنّما هي رمز الإنسان الكامل بوصفه «تَدبُّ النفوسُ إليها افتقارا»، لتجلّي المحبة و مظهر المقام الأعلى.

و إننا لننظر في هذه القصيدة بمعجم يضمّ أوصافاً انفردت بها خمر الصوفية، كالتجرّد من حدود الزمان و المكان و أنّها تتجاوز الوهم ، و تعلو على التصوّر.

ولعل أكثر أحوال المحبة دوراناً و تكراراً في شعر الشيخ البهائي هو مقام «الزهد». و «هو بمعني الإنصراف عن الدنيا و مفاتنها، و التمسّك بالتقوي و العمل الصالح مع الكسب و العمل.» (وهبة و المهندس،١٩٨٤م: ١٩٢) و الإستغناء عن الدنيا وغسل اليدين من زينتها و زخرفها، و ترك فانيها و في المقابل التمسّك بالباقي الذي لا يفنى و لا يزول أو يحول ، و الإنشغال به وحده و الهيمان في حبّه و التعلّق به و طلب القرب منه والدُنُوّ ، و محاولة الفناء في ذات المحبوب و هو الله عزوجلّ و فنائها فيها من أجل البقاء.

كقوله في هذه القصيدة:

ألا يا خائضاً بحرَ الأماني ... هداك اللهُ ما هذا التواني؟
أضعتَ العمرَ عِصياناً و جهلا ... فَمهلاً أيها المغرورُ مهلا

الي أن قال:

و قلبُك لا يفيقُ من المعاصي ... فويلُك يومَ يؤخَذُ بالنّواصي
بِلالُ الشّيبِ نادي في المَفارِق ... بِحَي عَلَي الذهابِ و أنت غارق

(البهائي،٢٠٠٩م: ١٨٦ و ١٨٧)

أو كقوله في قصيدة أخرى من سوانح سفر الحجاز، يقول فيها:

قد صرفنا العُمرَ في قيلٍ و قال ... يا نديمي قُم فقد ضاق المجال
و اسقني تلك المُدامَ السَّلسبيل ... إنها تَهدي إلي خيرِ السَّبيل

الي أن قال:

أيها القومُ الذي في المدرسة ... كلّما حصَّلتُموهُ وسوسه
فِكرُكم إن كان في غيرِ الحبيب ... ما لَكم في النَّشأةِ الأخري نصيب

فاغسلوا بالرّاحِ عن لوحِ الفُؤاد كلَّ عِلمٍ ليس ينجي في المَعاد
(المصدرنفسه: ١٣٩ و ١٤٠)

فكل هذه الالفاظ و العبارات و المفردات نجدها بلغة سهلة بسيطة موجودة في القواميس البسيطة، بما عبّر الشاعر عن القواعد العربية أو الدروس الفقهية و لكنّما الشاعر هنا إنّما يومئ بها الى دلالات مجردة بعيدة . إنها الفاظ و صور مرموزة تشير الى الحقيقة دون أن تكون الحقيقه. فنحن إذاً أمام فيوضات روحية باطنية ، اتخذت أشكالاً مادية ظاهرة ، ليعرب الشيخ عمّا يعتلج في ضميره و إبراز ما يجول في عقله وقلبه، من خلال ما يمارسه يومياً كأستاذ في الدين والفقاهة؛ و ذلك ليكون فيه القدرة المهيمنة على التأثير في السامع وهم تلاميذه.

و ما نراه في الأبيات التالية فإنّ الشاعر يشكو فيها لوعة الفراق و البعاد و يتشوّق الى اللقاء و يتوق الي الوصال ، و يبدو من هذه المعاني إنه عرف المحبوب فأحبّه ، و هجر الأوطان فتغرب ، و ظلّ ذلك الحبّ و الحنين الى الأوطان ساكناً بين الجوى و الجوانح ، و هذه المفردات دالة على أن هذا النسيب هو من الحبّ الإلهي:

عشّاقُ جمالك قد غرقوا في بحرِ صفاتك و احترقوا
في بابِ نوالك قد وقفوا و لغيرِ جمالك ما عرفوا
نيرانُ الفُرقَةِ تُحرِقُهُم أمواجُ الأدمُعِ تُغرِقُهُم
مِن غيرِ زُلالك ما شربوا و بغيرِ خيالك ما طَرِبوا
(المصدرنفسه: ٢٠١)

«الصورة واضحة و مدلولها العرفاني واضح ايضاً ، العشاق هم اصحاب الحال و ارباب الكمال، احترقوا بمحبة الذات العلية و غرقوا في بحر صفات الله عزّوجلّ ، يقفون في بابه يستجدون نواله ، حياري لا يعرفون رأسهم من رجلهم في طريق طلب النوال ، لا تزال ذكري الوصال تؤرّقهم ، فالوصال معرفة بالحبيب و بجماله الروحي.» (عباس،٢٠١٠م: ٤١٨)

و هكذا نري من خلال هذه الدلالات اللفظية المتنوعة نجد أن هنالك جامعاً مشتركاً ليس اللفظ فحسب ، و إنّما هناك تقارب معنوي. فهذه المفردات العديدة يجمعها مضمون الإنجذاب و الجمال.

النتيجة

من خلال تتبعنا لتجربة الرمز في شعر الشيخ البهائي كمحور لهذه الدراسة، تم التوصل الى النتائج التالية:

١. يتخذ الرمز في شعر الشيخ البهائي منحى تصاعدياً من البُعد المادي الى البُعد الروحاني أو المعنوي؛ ليصل الى الغرض المقصود عند الشاعر و من ثَمّ السامع.
٢. استخدم الشاعر الرموز الدينية بكثرة ، تمثلت في شتّى المعاني ، و قد استحضرها بغية ربط المسلم الحاضر بالسلف الماضي، و يرجع هذا الى ثقافته الدينية الواسعة و مكانته.
٣. الرمز الصوفي الذي وظفه الشاعر كان منبعه الشاعر نفسه ، بمعنى أن هناك ترابط وثيق بين الشاعر و ذاته و شعره. و التي تدعو الى الطُهر والانطلاق نحو العالم الأفضل؛ على عكس من يمتطيها للعزلة و الجمود.
٤. يسعى الرمز في شعره الى تكثيف الصورة الشعرية و إغناءها ، ذلك يزيد في أبعاد الجمالية للقصيدة.
٥. ـأبدع الشيخ البهائي في تصوير البيان القرآنيه و الاحاديث ، لأنه من المصادر الأساسية التي تفاعل معها في تكوين تجربته الشعرية و مدّته بقاموس شعري يمثل نسيجاً لغوياً متميزاً في بنية قصائده.

هوامش البحث

١ هو محمد بن محمد بن حسين البلخي، عرف باسم جلال الدين الرومي، وهو شاعر وعالم في علوم الفقه، وعدة علوم إسلاميّة أخرى، واشتهر ببراعته فيها، ويعد من المتصوفين، فكتب العديد من الأشعار باللغة الفارسية، وقد ترجمت حديثاً ولاقت انتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي، وخاصّة عند المسلمين.

٢ الترجمة:استمع للناي كيف يقصّ حكايته، إنّه يشكو آلام الفراق.

٣ الجامي هو عبدالرحمن بن احمد الدشتي ، كان من علماء الصرف و النحو و كان من الشعراء المتصوفة و قيل من الإمامية. إلّا انّه كان يعمل بالتقيّة ، لأنّ بيئته كانت علىٰ خلاف مع مذهبه.

قائمة المصادر و المراجع

إن خير مانبتدىء به القران الكريم

١. ادونيس. (١٩٧٢م) .زمن الشعر. بيروت : دار العودة.

٢. ابن عربي، محي الدين. (١٩٩٩ م) . الفتوحات المكية . بيروت ــ لبنان :دار الكتب العلمية.

٣. البهائي، محمد بن حسين. (٢٠٠٩ م) . الديوان . قم ــ ايران: دار زين العابدين.

٤. الجردي ، وجدي امين. (٢٠١٨م). خاطرات الصوفية بين دلالة الرمز و جمالية التعبير. بيروت ــ لبنان: دار الكتب العلمية.

٥. حمدان، أميه احمد. (١٩٨١م). الرمزية و الرومانتيكية في الشعر اللبناني. العراق: منشورات وزارة الثقافة و الاعلام ــ دار الرشيد للنشر.

٦. الحفني، عبدالمنعم. (١٩٨٧م) . معجم مصطلحات الصوفية. بيروت: دار المسيرة.

٧. خوالدية، أسماء. (٢٠١٤ م). الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة و الإغراب قصدا. الرباط: دار الامان.

٨. عباس، دلال. (٢٠١٠ م). بهاء الدين العاملي أديباً و فقيهاً و عالماً. بيروت ــ لبنان: دار المؤرخ العربي.

٩. علوان، علي عباس. (١٩٧٥ م). تطور الشعر العربي الحديث في العراق. العراق: منشورات وزارة الثقافة و الاعلام الجمهورية العراقية.

١٠. العوادي، عدنان حسين. (١٩٧٩م). الشعر الصوفي حتّى أفول مدرسة بغداد و ظهور الغزالي. العراق: دار الرشيد للنشرــ دار الحرية بغداد.

١١. غنيمي، هلال محمد. (٢٠٠٣ م). الأدب المقارن. مصر: نهضة مصر للطباعة و النشر.

١٢. الكرباسي، محمد صادق. (٢٠٠٩ م). دائرة المعارف الحسينية ، ديوان القرن الحادي عشر. لندن: مركز الحسيني للدراسات.

١٣. نصر، عاطف جودة. (١٩٧٨م). الرمز الشعري عند الصوفية. بيروت : دار الاندلس للطباعة و النشر و التوزيع.
١٤. وهبة مجدي و كامل المهندس. (١٩٨٤م). معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب . بيروت: مكتبة لبنان.